حرية التعبير المطلقة

الفاصل بين مدينة الأشقياء ومدينة الأنبياء

(المقدمة)

١- يقول الملك الأعلى "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم."

٢- هذا الكتاب موجّه إلى عامة الناس والمسلمين، ولكنه في المقام الأول والأهم موجه إلى أهل بلادنا، المملكة العربية السعودية. وإني شخصياً لا أبالي إلا بقومي، بناء على مبدأ الأنبياء "يا قوم"، فلكل أمة نذير ومعلمين، وما الذين يتهربون من كشف عيوب قومهم وعلاجها أو محاولة علاجها إلا الدجالين الذين لا يخلصون في العمل كما يزعمون. إذ يخشى أن ينبذه أهله لو قال عنهم ما لا يعجبهم. فيقوم بكشف كل "أخطاء ومعاصي" أهل البلاد الأخرى، خاصة الغرب "الكافر"، ولكنه لا يذكر عن أهله إلا قليلاً. الذي يهتم بغير قومه في المقام الأول كمن يطعم الجيران ويدع أهله يقاسون الجوع. أو كمن يحسن إلى الغرباء ولا يكلم إخوانه ويقاطعهم. وبناء على ما فات، فإني أقوم بهذا الكتاب إلى أهل بلادي خاصة.

ومن زاوية أخرى، فإننا أهل المملكة العربية السعودية الوحيدون الذين يجاهرون بأن مرجعنا الأول والأخير في كل تشريعاتنا هو الله تعالى. ولا يمكن لتشريع أن يصدر عندنا ونجاهر بأنه مخالف لحكم الله تعالى. ومعلوم عند الكل أن عامة الشعب، وأكثره إما يحب الدين وإما يهابه حتى لو لم يكن يعرف عنه شيئاً يذكر وحتى لو لم يكن يتبعه في شيء. فقابلية أهلنا للأخذ بالدين أكبر بكثير من باقي البلدان. فحتى الجاهل عندنا يقول أنه جاهل ولا يتعمق في الدين لأن "الدين أمره بذلك" غالباً. وحتى الفاسق عندما يرجعوا ولو بلسانه أن "الله غفور رحيم" وأن "الرسول سيشفع لأهل الكبائر من أمته". إني أعلم أن الكثير من أهلنا لا يبالي واقعياً بالدين، ولكنه يحبه من منطقة عميقة من قلبه، ولو وجد الأفكار الإلهية الراقية والتي تخاطب طبيعته لقبلها قليلاً أو كثيراً، ولهذا فإن أفكار الدين قد تجد لها رواجاً عندنا. إلى حد ما.

٣- ماذا نريد من هذا الكتاب؟ الهدف النهائي الذي سنسعى إليه بقوة الله هو أن يصدر تشريع رسمي كامل يقر بحرية التعبير المطلقة، مهما كانت الأفكار العلمية التي تطرحها، وخاصة لو كانت أفكار تستند إلى كتاب الله. وأشدد على "مهما كانت الأفكار". حتى لو كانت تخالف الأفكار السائدة، وحتى لو كانت أفكار "كفر" و "زندقة" وما شابه. وأن يسمح للمفكرين بالتكلم في الساحة العامة، وإقامة أماكن لنشر أفكارهم. وأيضاً أن ينشروا الكتب، وأن يظهروا في القنوات الفضائية. بدون أن يتعرضوا ولو من بعيد لعقوبة السجن أو القتل أو الطرد من البلاد. بل يجب أن توفر الحكومة الحماية للمفكر الذي قد يهدده أحد من الناس بذلك. وهذا لكل المفكرين بلا استثناء. وأما تفصيل ذلك فهو ما سنكرس له هذا الكتاب. فالغاية هي أن يصدر تشريع يكون محوره هذه الكلمة: "يسمع لكل مفكر أن ينشر أفكاره بكل وسائل الإعلام، وتضمن له الحكومة السلامة التامة من أي أذى جسماني".

٤- سنقسم الكتاب إلى فصول :-
الأول عن أسباب الكتم الموجب لغضب الله.
الثاني عن منافع ومضار حرية التعبير المطلقة ووضعها في الميزان.
الثالث من أنواع المعارضين لحرية التعبير المطلقة.
الرابع عن الطريق الموصل إلى اصدار التشريع المرغوب.

فتعالوا ننظر.

...-...

١. أسباب الكتم.

١- إذا حللنا الكتم فسنرى أمامنا على الأقل خمسة أسباب تدفع الناس في كل زمان ومكان إلى أن يكتموا أفكارهم: الخشية من السلطة السياسية، والخشية من المؤسسة الدينية المسيطرة على الجماهير، والرغبة في الحصول على المال أو الشكر مقابل الأفكار، وعدم رغبة الناس في هذا النوع من الأفكار، وعدم توفر الامكانات المالية لنشر الأفكار.

فأما الرغبة في الأجر فيعود إلى المفكر بنفسه، وأما عدم رغبة الناس فلا يحق لأحد أن يجبر الناس على حب أفكاره. وأما عدم توفر الأموال التي تعين على النشر فيقع العبء الأساسي على صاحب الفكرة وعليه أن يجد من يؤيده ويدعمه. فهذه الثلاثة لا تهمنا هنا في هذا الكتاب. وفي الواقع هي أسباب ضعيفة نسبياً، إذ من يملك فكرة قوية يؤمن بها بعمق فإنه سيجد له مخرجاً.

والذي يهمنا هو السببين الأولين، أي الخشية من السلطة العسكرية والمؤسسة الدينية. فالحكومة تملك ايقاع الأذى والاعتداء الجسماني كالسجن والقتل والإخراج أي الطرد من البلد، والمؤسسة الدينية نملك تأثيراً خاصاً على الحكومة، ومصدر نفوذها الأساسي هو كونها تملك التأثير الديني على عامة الشعب، ولن تعدم بهيمة يطيعها في ايقاع الأذى على مفكر قد يهدد زوالها أو إضعاف نفوذها على عامة الناس. والتحليل يظهر أن المؤسسة الدينية الرسمية لا تملك ايقاع الأذى إلا بإذن من الحكومة. فمثلاً، ترى عندنا أن الشيعة لا تملك نفس نفوذ الطائفة السلفية، وظاهر أن سبب ذلك هو أن الحكومة تقرب الطائفة السلفية وتؤثرها بعنايتها بدرجة أو بأخرى.

فإذن يمكن أن نرد سبب الكتم الرئيسي إلى الخشية من السلطة السياسية التي تملك العساكر، وبيدها ايقاع السجن أو القتل أو الاخراج من الديار.

٢- قد يقول البعض: نعم إن الخشية من السلطة السياسية هو السبب الأكبر لكتم العلم، ولكن على أصحاب الفكر أن يموتوا في سبيل نشر فكرهم ويجاهروا بالحق مهما كلف الأمر. أقول: هذا غباء صرف. وهذه الفكرة من ابتكار نفس السلطة السياسية التي تريد أن تقتل كل من يفكر بالتغيير. كمثل رجل يختبئ داخل بيت، ما هي أحسن طريقة لاخراجه؟ هي بجعل الدخان ينتشر داخل البيت حتى يجبر على الخروج أو الموت. وهكذا هذه الفكرة هي كالدخان، فإذا تشربه المفكر فأمامه أحد أمرين: إما أن ينشر فكره فينكشف فتلقي عليه الحكومة القبض، وإما أن يكتم فيقول عنه الناس أنه جبان ويبحث عن مصلحة نفسه ولذلك خشي عليها من الأذى.

فخذ مثال يوسف وموسى. أما يوسف فلما لم يجد أمامه إلا أن يخضع لشهوات النساء أو السجن قال لربه "وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين" ولم يقل أنه سيعرض نفسه للأذى والسجن في سبيل حفظ قيمة أو قيمتين، ولعله قال لنفسه "الضرورات تبيح المحظورات" أو "فمن اضطر فلا إثم عليه". وكذلك موسى. لما أمره الله بالذهاب إلى فرعون لم يقل

"توكلت على الله" ولكن رد على ربه وقال "إننا نخالف أن يفرط علينا أو أن يطغى". فالدعوة ونشر الفكر ليست بالتهور وطيش الشباب، ولكن بحكمة وبعد نظر.

نعم قد يرى النبي أحياناً أنه معرض للخطر ومع ذلك يقوم بالأمر. ولكن هذا في حالات معينة تكون فيها نسبة السلامة أعلى من نسبة الخطر. وأيضاً بحسب القيمة التي يدافع عنها النبي، فيوجد أمور تستحق أن يموت المعلم في سبيلها وبذلك يؤثر في الناس أكثر. ويوجد أمور فرعية لا تستحق كل ذلك. ثم لا ننسى أننا في في عصر تجاوز هذا النوع من المخاطر بدرجة أو بأخرى.

السلم مقدمة ضرورية لنشر العلم. فما لم يتوفر الجو الهادئ المسالم لن يضحي العلماء بوقتهم وجهدهم في سبيل اقناع الأنعام بشيء. "يا أيها الذين ءامنوا.. لا يضركم من ضل إذا اهتديتم".

٣- من أهم القواعد في القرءان قاعدة تقول "ما أمر الله به يجب الأخذ بكل أسبابه، وما نهى الله عنه يجب تفادي كل آثاره". وإني أرى أنها أهم قاعدة على الإطلاق في منهج النبوة.

وإن الله أمر بنشر الأفكار. وهذا يعني أنه يأمر بكل الأسباب التي تؤدي إلى نشر الأفكار. ومن أهم هذه الأسباب بل لعله أهمها هو أن لا تتعرض السلطة السياسية للمفكرين على الاطلاق مهما قالوا بلا استثناء حرف واحد. وإذا لم تقم الحكومة بذلك فهذا يعني أنها سبب كتم العلماء للعلم. فكل غضب ينزل سيكون لها الحظ الأكبر، هذا إن لم يكن لها كل هذا الحظ التعيس.

والحمد لله أننا لسنا في بلاد ملحدة أو ما شابه. فنحن نحتكم إلى الله في كل شؤوننا ولو ظاهراً في بعض الأحيان. وهذا هو حكم الله: أن لا تتدخل الحكومة في شؤون العلم، فلا تقيد ولا تعاقب ولا تنحاز إلى جانب دون آخر. ومن الإحسان أن تساند الحكومة هذا الأمر، وتدعم حرية التعبير المطلقة، وتمنع أي أذى جسماني من الوقوع على صاحب فكر. وإنا لا نرى أن هذا يمكن أن يتحقق إلا باصدار تشريع رسمي في ذلك، ودعمه بكل الوسائل، ولهذا منافع لكل الناس كما سنرى في الفصل القادم.

...-...

.٢. ميزان المنفعة والضرر.

١- تعالوا ننظر في الأضرار التي يمكن أن تترتب على إعمال هذا المبدأ، مبدأ الحرية المطلقة في التعبير، ثم المنافع. وقبل ذلك يجب أن نذكر بواقعة فاعلية لا يمكن دفعها بحال من الأحوال وهي هذه: لا يوجد أي شيء يمكن أن يقف في وجه انتشار الأفكار في أي بقعة من بقاع الأرض بفضل وسائل الإعلام المختلفة. وأي محاولة للحد من ظهور هذه الحرية في المجتمع مهما كان شكلها فإنها ستؤدي إلى عكس ما يخطط له الذين يقومون بالقمع الفكري. وذلك لأن الناس سترى في الأفلام والفضائيات والانترنت أن كل بلاد العالم تملك هذه الحرية، وقد يسمعون عن أفكار جديدة بالكلية وآراء في الدنيا والحياة لم يسمعوها في البرامج المسموح لها البث، ولم يسمعوها من خطيب الجمعة من قبل، وهذا سيؤدي إلى الاعتقاد بأن الحكومة والمؤسسة الدينية يقومون بإخفاء هذه الأفكار لأنها الأفكار "الحقيقية". مما سيفرز كره الناس للدين عامة والحكومة والمفكرين البارزين في المجتمع. ولا أظن أن أحداً يريد لمثل هذا أن يقع.

أضف إلى ذلك أن أكثر من ٢٠ ألف سعودي وسعودية يدرسون في الخارج. وأمثال هؤلاء لا يمكن أن يعيشوا في قيود فكرية بعد أن ذاقوا حرية التعبير المطلقة أو شموها من بعيد. وقل مثل ذلك في السياح وغيرهم. فكل محاولة من الحد من حرية التعبير المطلقة عندنا ستؤدي لا محالة إلى انفجار، عاجلاً أم آجلاً.

وقد أقام كرسي الأمير خالد الفيصل مسابقة لأحسن مقالات عن "منهج الاعتدال السعودي"، وقد كان من حسن حظي أني كنت في محاضرة مملة في الجامعة عندما سمعت بخبر هذه المسابقة، فانشغلت عن الدكتور الذي يغلب على ظني أنه يملك قوى التنويم المغناطيسي وأنه يمارس هذه القوى علينا، فقمت بكتابة مقال في هذه المحاضرة وأرسلته بعدها وقد فاز المقال بالجائزة مع غيره. ومحور المقال كان هذه القاعدة التي هي أهم القواعد عندي وقد استنبطها من الكثير الكثير من الدراسة والقراءة والتجربة وهي: "كبت الأفكار يجعلها تنفجر، نشر الأفكار يجعلها تزدهر". بغض النظر عن نوع الأفكار. وكونه فاز، فهذا يعني قبول المسؤولين عن مثل هذه القاعدة، وهذه بشرى خير. وما هذا الكتاب إلا تفعيل لهذه القاعدة في المجتمع وتفصيل لها.

٢- أما الأضرار فلن نجد إلا ضرر واحد يردده بعض الناس دائماً وهو "هذا سبب لنشوء الفتنة في المجتمع". أي أن الأفكار "الغربية" "الكافرة" ستجد لها منفذاً إذا أيدت الحكومة مثل هذه القاعدة. فمن باب "سد الذرائع" يجب قمع العقول بقدر الإمكان. هل هذا صحيح؟

أولاً، من جعلكم أوصياء ووكلاء على الناس؟ إن كان الله نفسه لم يجعل نبيه وكيلاً على الناس "قل لست عليكم بوكيل" فمن أنتم حتى تزعموا لأنفسكم امتياز كهذا؟

ثانياً، ما ترون أنه "فتنة" قد جاء. وسيظل ينهمر كجلمود صخر حطّه السّيل من علٍ فوق رؤوسكم. وقد بينا أن وسائل الإعلام كشفت عن كل شيء. وإذا لم تؤيدوا انتشار الأفكار من قبل

سعوديين فإن الأفكار نفسها ستدخل عن طريق غيرهم وعندها ستخسر الحكومة ولاء الناس وسيخسر الدين ولاء الناس. ولات حين مناص. وليس في أمور العلم أي فتنة. الفتنة كلها في القمع والكبت والجهل. فلا تقارنوا عليين بأسفل سافلين. ثم إن كنتم تقصدون انتشار "الفسق والدعارة والمخدرات"، فهذا كما قلنا لا علاقة له بالعلم، وأيضاً هذه الأمور لا يخلو منها مجتمع، وكم من فاسق وداعرة ومروج مخدرات ألقي عليه القبض في الحرم المكي ذاته. فما ظنك بما هو خارجه؟

ثالثاً، إن كنتم حقاً تخشون الأفكار الغربية فلماذا أنفقتم المليارات لابتعاث الشباب السعودي إلى الخارج. فهل يخشى أحد من النار فيلقي أبناءه فيها؟ تكرهون القوم وترسلون أبناءكم ليتربوا عندهم ! ثم أي فكرة غربية هذه لم تدخل عندنا، على الأقل عن طريق الأفلام ؟ نرجوكم كفوا عن اختلاق الأعذار الطفولية هذه، وتعالوا وأيدوا هذا المشروع فإن فيه نفعنا وطاعة لأمر الحق المتعالي.

رابعاً، كيف تدعون أنكم من أهل القرءان ولسانكم يشبه لسان فرعون؟ فرعون أراد قتل موسى لأنه خاف على الدين وعلى صلاح المجتمع "إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد". وفرعون احتكر لنسه سلطة تعريف الحق والباطل "ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد". وأما لسان الله فها هو القرءآن بين أيديكم، فانظروا فيه، وستجدوا أنه ذكر كل الأفكار "الكافرة" التي يمكن أن تظهر على وجه الأرض. بل لعل القرءان شرح الأفكار الكافرة أحسن من شرح الكفار لها، فكيف يمكن أن يظن البعض أن القرءان يدعو إلى قمع الأفكار الكافرة، فضلاً عن الحسنة النافعة؟ تقفون في صف موسى وقلوبكم قلوب فرعون.

خامساً، فكرة "الفتنة" هذه تدل على أن هؤلاء يرون الشعب السعودي كالأنعام لا عقل له ولا يقوى على التفكير والاختيار. إذ هم يصورون الناس عندنا أنهم ما إن يسمعوا أي فكرة سيقبلونها ويجاهدون في سبيلها. لو صدق هذا التصور فالوزر كله عليكم، إذ أنتم من تقومون بتربية الشعب في البيوت والمدارس والمجامع وبالرقابة. فكأنكم خلقتم المرض ثم جعلتم أنفسكم العلاج له. وإن لم يصدق هذا التصور، وهو ما أراه عامة، فلا محل للخوف على الناس إذن. وفي رأيي أن من يرون أنفسهم "أصحاب الحق" عندنا هم أول من يحتاج إلى الاستنارة. ثم إن الاعتياد على حرية الفكر ستؤدي إلى خلق عقول مستنيرة. فالغرب كان يرى العفاريت داخل الساعة يوم كان العرب في أعلى درجات العلم، فإن كانت حرية الفكر يمكن أن تصلح هؤلاء فلا شك أنها يمكن أن تصلح شعوبنا أيضاً.

وأخيراً وليس آخراً، الفتنة عند البعض هي قمة المعرفة عند الآخرين. والذي يستعمل السلاح الجسماني لفرض فكرته إنما يدل على ضعفه وذلته "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" "كذلك يضرب الله الحق والباطل" فاذهبوا وادرسوا هذا الحكم المتعالي لعل شيء من النور يشرق عليكم ويمنعكم من ذكر مثل هذه الاعتراضات الضعيفة التي تصد عن سبيل الله وتضر الناس.

٣- وأما المنافع التي يخلقها اتباع مبدأ "حرية التعبير المطلقة" فمنافع كثيرة جداً. نختار منها خمسة. ولعل واحد من هذه المنافع الخمسة يكفي لدفعنا لاتخاذه كمبدأ مقدس في حياتنا.

أولاً، انتشار الفكرة الأقوى. فعندما يعرض كل مفكر ما يرى أنه الأحس، ثم نقارن هذه الأفكار، ونرى مواطن القوة والضعف في كل فكرة، ثم نتجادل ونتعمق، ونجرب ونعتبر، كل هذا يؤدي إلى تفعيل مصداق قول الله "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

ثانياً، ترقي الناس روحياً ومعيشياً. فما التطور إلا نتيجة لتلاقح الأفكار بحرية.

ثالثاً، التكبر بالعلم بدل الإرادة. فكل إنسان يريد أن يشعر بالكبر. إما بالإرادة والجسم وإما بالفهم والعلم. وهذا هو جوهر النفس المطلق. فعندما تفتح أبواب العلم ستنسد أبواب جهنم، كلها أو بعضها. ولا تستقل هذا الكلام. فإني أعمل على الاختصار وجمع المعاني في كلمات معدودة حتى يتسنى للكل قراءة هذا الكتاب. مع العلم أن هذه المنفعة الثالثة فيها جوهر القرءان والنبوة كلها، وأما تفصيلها فله مواضع أخرى لعلنا ننشرها إذا صدر التشريع الذي نرغب فيه.

رابعاً، أن نجعل الجزيرة قلب العالم الإسلامي. فنهاية الجدل الديني بين الطوائف سيؤدي إلى ظهور أصحاب القرءان. إذ كل طائفة تحمل القرءان زائد كتب أخرى. وأما الجزيرة فيجب أن لا تكون منحازة لطائفة دون أخرى. أي عليها أن تأخذ بكتاب الله وحده حتى تكون أعلى من كل الأحزاب الأخرى الذين "تقطعوا أمرهم بينهم زبداً كل حزب بما لديهم فرحون" وحرية التعبير ستؤدي إلى تحويل الجزيرة إلى مركز ديني علمي ومحور عالمي. ولهذا فوائد كثيرة مما لا يخفى على المستبصرين.

خامساً، تعلق الشعب برموز المجتمع وقادته. فعندما يرون القادة مفكرين ومنفتحين سيحبونهم وينجذبون لهم ويعملون على الوصول إلى مراتبهم العلمية. فالناس غالباً يكونون على دين ملوكهم. فما أجمل لو كان الملوك يؤيدون العلم وحرية التعبير المطلقة حقاً وفعلاً.

٤- فإذن مهما قلبنا النظر فسنرى أن حرية التعبير المطلقة كلها خير، أو على الأقل خيرها أكبر من ضررها. بالرغم من أني لا أرى لها ضرراً. وهذه من الأمور القليلة جداً في الحياة التي يكاد يختفي الضرر منها. ففي أسوأ الأحوال، خيرها أكبر من شرها. فيجب الأخذ بها بقوة.

...-...

٣. المعارضون للمشروع وإجاباتنا لهم.

١- يوجد على الأقل أربعة أصناف من الناس يمكن أن يعارضوا مثل هذه الفكرة التي ذكرناها، وهم: رجال الحكومة، رجال الطوائف الدينية، والكسالى من الناس، والأثرياء. وأما أسباب معارضتهم فيطول شرحها وتحليل جذورها فنكتفي بذكر الخلاصة المفيدة.

أما رجال الحكومة فقد يخشوا نشوء الأحزاب مما يضعف المركزية وقد يهدد سلامة الدولة. فمعلوم لكل عاقل ودارس للتاريخ أن بداية التغيير هي الكلام الناقد. أو قد يخشوا ازدياد مطالب الناس منهم. فقطعاً لهذين الأمرين يستحسن تقييد حرية التعبير المطلقة.

وأما شيوخ الطوائف الدينية فيخشون من الأفكار التي يمكن أن تغلب أفكارهم التي يعرضوها للناس. ويخشون من أن يفضحهم المفكرين ويظهروا بواطن أمرهم.

وأما الكسالى فهؤلاء بهائم البشر الذين لا يريدون من الحياة إلا المظاهر البسيطة. والسر في ذلك هو كونهم يكبتون الكثير من الأفكار السيئة داخل نفوسهم، ولذلك لا يحبون أي نور، إذ ستنكشف بواطنهم وسرائرهم للناس إذا ظهر النور. فهم كالمشوه الممسوخ الذي يحب الغرف المظلمة حتى لا يظهر منه شيء. فيعادون العلم والتحليل والتأويل من شدة كرههم لأنفسهم ولو لاشعورياً.

وأما الأثرياء فيخشون ظهور حركات جماهيرية قد تعرض ثرواتهم للخطر. أو أفكار تقتل حب الزينة الذي يتغذى منه الأثرياء لاشباع رغبتهم في الكبر. كقارون "فخرج على قومه في زينته. قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم" والأثرياء يستمدون فرحتهم من حسرة الناس. والتنوير عاجلاً أم آجلاً سيكشف حقيقة الأمور للناس وعندها سيتحقق قول الحق "فخسفنا به وبداره الأرض"، فالأثرياء يخشون على راحتهم وثرواتهم وسبب فرحتهم. وحرية التعبير المطلقة قد تهدد هذا. فمن الأفضل لو يخرس الناس.

وهذه الأصناف الأربعة لا تختص ببلد دون آخر. ففي كل مجتمع توجد هذه الأصناف الأربعة. ولكنها تزداد في القوة أو الضعف بناء على عوامل أخرى. وأما بالنسبة لبلادنا، أي المملكة، فلعل القرائن تشير إلى أن رجال الحكومة يرغبون في ترسيخ هذه الحرية. وكمثال نذكر موقف الأمير سلمان بن عبدالعزيز عندما قال له أحد شيوخ الدين السلفي أنه يوجد في الإعلام أناس يتكلمون بأمور مخالفة للدين، ويريد من الأمير أن يمنعهم من الكلام. فرد عليه الأمير أنه لن يمنع المفكرين ولكنه سيرسل لهم من يحاورهم، أو بما معنى هذا الكلام. أضف إلى ذلك البعثات الدراسية إلى الخارج، وغير ذلك مما هو معروف عندنا. وكما عرفنا في الفصول السابقة، فإن السلطة السياسية إذا أقرت أمر فلن يستطيع أهل الطوائف أن يعارضوه، بل سيضطروا إلى مسايرته حتى ولو اعتقدوا بخلاف ذلك. ولهذا حوادث مشهورة تثبته نعرفها كلنا، كمسألة الاختلاط وما شابه.

ففي الواقع، نحن لا نحتاج أن نقنع رجال الطوائف، إذ هؤلاء يملكون "الحقيقة المطلقة" ولن يسمعوا لأي شيء نقوله. ومن اختار أن يصم أذنيه لن ينفع أن نصرخ في أذنيه. وأما الكسالى فلا حول لهم ولا قوة. وأما الأثرياء فلعل أكثرهم لا يبالي بأمور الفكر أو يرون أنه لن يستطيع أحد أن يؤثر فيهم. ومهما كانوا فإن أمر الحكومة سيسري عليهم شاؤوا أم أبوا. فإذن خلاصة الموضوع أن علينا أن نطلب من الحكومة ولا يهمنا غير ذلك.

٢- وللأثرياء الذين يخشون إقرار حرية التعبير المطلقة نقول : هذه مسألة علمية، وحتى في أكثر البلاد حرية يوجد أثرياء فلا داعي للقلق مبدئياً. وللكسالى نقول: إن شئم أن تسمعوا للمفكرين فاسمعوا، وإن لم ترغبوا فلن يجبركم أحد على شيء. ولرجال الطوائف نقول: الإعلام كشف ويكشف كل شيء، فإن لم تساندوا حرية التعبير فسيؤخذ هذا عليكم كنقطة ضعف، فمن مصلحتكم أن تساندوها، إذ لوظهرت أفكار أحسن من أفكاركم فأنتم أولى بها والحكمة ضآلة المؤمن، وإن كانت أفكاركم أقوى فسيزداد تعلق الناس بكم، فكلا الأمرين يصب في مصلحتكم.

وأما لرجال الحكومة الذين لا يؤيدون مثل هذه الحرية فنقول: إذا لم تسمحوا بها إرادياً وبمبادرة من عندكم فعاجلاً أو آجلاً ستضطرون لقبولها. وعندها لن يرى الناس من أنكم الأعلى ولن تحسب لكم كحسنة، بل سيظهر الناس إليكم وكأنكم رضختم للأمر الواقع. فالقبول والمبادرة عاجلاً خير من الاضطرار آجلاً. ومن ناحية أخرى، فإن العلماء الحقيقيين لن يقبلوا بالحياة في مجتمع لا يمنح حرية التعبير المطلقة، وهذا سيؤدي إلى هجرتهم إلى بلاد تمنح مثل هذه الحرية والسعة في البحث والتدريس، وبعد فترة لن يبقى في البلد إلا أرباع مفكرين، بل عميان، وعندما يقود الأعمى العميان فكلاهما سيسقط في هاوية الهلاك والنسيان. والمفكر الراقي لن يجبر الناس على سماع أفكاره. فهو يريد جو مسالم هادئ يقدره ويقدر علمه حتى يستطيع أن يدرس بارتياح. ولذلك على الحكومة أن تبادر بمشروع "حرية التعبير المطلقة" هذا قبل أن يطلبه المفكرين. ومن باب أولى من بعد أن يطلبوه.

...-...

٤. الطريق إلى تنفيذ المشروع.

١- لن يقبل مشروع مثل هذا إلا بأمر ملكي. كلنا يعلم ذلك. ونحن لا نتوقع أن الملك أو كبار الأمراء سينزلون إلى المكتبات ويقرأون مثل هذا الكتاب أو غيره. ولذلك علينا نحن أن نصل إليهم ونطلب ذلك منهم. وأيضاً إذا اكتفينا بإرسال "معروض" إلى كبار الأمراء فنحن لا ندري لعل خطابنا لا يصل لسبب أو لآخر، أو قد يتعطل ويأخذ فترة طويلة للوصول ثم للبحث فيه ولعل أحفادنا يموتون قبل اقرار المشروع. وبناء على ما فات اقترح على المفكرين السعوديين أن يقوموا بالآتي:-

أ- نشر مقالات في الصحف الكبرى والمجلات السعودية في هذا الأمر.
ب- إقامة لقاءات ومحاضرات عامة وفي الاعلاج العام في تبصير الناس بأهمية هذا الأمر.
ج- صياغة معروض من قبل أحد كبار الدعاة أو المفكرين، وجعل أكبر عدد من المفكرين يوقعون عليه وإرساله إلى كبار الأمراء الذين بيدهم إقرار مثل هذا المشروع.
د- على رجال الدين المستنيرين أن يؤثروا في الناس، ويستعملوا نفوذهم التأثيري لاقرار مثل هذا المشروع. وعلى كبار التجار أن يستعملوا تأثيرهم لذلك أيضاً عن طريق توصيل المشروع إلى من بيدهم الأمر. وهذه النقطة الأخيرة لا أراها إلا ضرباً من الأحلام إذ كما عرفنا أن هذين الصنفين غالباً ما يكونون ضد العلم الحقيقي. ولكن ماذا سنخسر. فالأحلام تصدق في بعض الأحيان.

...-...

(خاتمة)

أذكر في هذه الخاتمة أن العلماء الحقيقيين لم يبرزوا للساحة بعد. وهؤلاء لا يمكن أن يبرزوا إلا في سلام وهدوء، وهذا كما عرفنا لن يحدث إلا إذا أقرت الحكومة هذا المشروع العظيم. وما هؤلاء الذين ترونهم وتسمعونهم في الغالب إلا مهرجين وتجار مخدرات فكرية. وإنما يستمدون قوتهم من غياب الأقوياء. كمثل ذلك الصعلوك الذي استغل حب أبيه له فيعمل على سجن إخوانه الكبار. وراح يستعرض عضلاته التافهة أمام المشلولين والمرضى. ولكن عندما ينكسر باب السجن، ويبرز الكبار، عندها سيحقق الله الحق بكلمته ويقطع دابر التافهين.

وليتذكر الناس هذه الآية "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" وتذكروا أن نبينا محمد عليه السلام كان يعاني بسبب الذين يفرضون الحصار الفكري ويهددون بالسجن والقتل والطرد من البلاد. ولو طبق أهل الجاهلية حد "الردة" على نبينا محمد عليه السلام لكنا اليوم لا نزال نعبد هبل. فافهموا.

أهل الفكر يريدون الأمان والسلام لينشروا فكرهم وليرتقي الناس. ولا نملك أي سلاح سوى كلامنا. وإن الله لو شاء أن يحق الحق بصواريخ نووية ودبابات وعساكر لفعل. ولكنه اختار أن يحق الحق بكلماته. ونحن على هدي الله. فمتى ستخشع قلوب الذين ءامنوا لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالجهلة الذين قست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ؟ "أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون".

"هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. إنما يتذكر أولوا الألباب".

....انتهى والحمد لله.